الخطاب الديني عند الشيخ
محمد الحسين آل كاشف الغطاء

الدكتور
محمود شاكر عبود الخفاجي
الكلية الإسلامية الجامعة
قسم الدراسات القرآنية واللغوية

الخطاب الديني عند الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

الدكتور

محمود شاكر عبود الخفاجي

الكلية الإسلامية الجامعة

قسم الدراسات القرآنية واللغوية

المقدمة

ان البحث في مآثر العلماء وتقصي آثارهم جزء من الوفاء لهم، ودعما لمسيرة العلم والمعرفة.

وهذا غيض من فيض الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء،تركز في خطابه الديني الذي أفنى عمره علما وعملا من أجله.توزع على محاور ثلاثة:

الأول: نبذة مختصرة عن حياة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء.

الثاني: أساليب الخطاب الديني ومعطياته.

الثالث: الخطاب الديني عند الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء.

وقد اعتمدت على ما توافر لدي من آثار الشيخ المطبوعة،لصعوبة الحصول على آثاره المخطوطة التي هي اكثر من المطبوعة، دعاني الى ذلك أهمية الخطاب الديني ومدى حاجتنا في هذا العصر إليه.كي ننقل الحديث الى المعاصرة والماضي الى الحاضر.

الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء:

هو الشيخ محمد حسين أو (محمد الحسين) بن الشيخ علي بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ موسى بن الشيخ جعفر بن الشيخ خضر بن يحيى المالكي الجناحي النجفي[١].

من أسرة عربية عريقة من قبائل العراق، تسكن قرية جنوب مدينة الحلة (بابل). وأول من هاجر الى النجف الأشرف جدهم الشيخ خضر عام ١٧١٦م[٢].

ولقبت أسرته (آل كاشف الغطاء) نسبة الى كتاب لجد الأسرة الشيخ جعفر الكبير(١٧٤٣-١٨١١م) المسمى بـ((كاشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء)) والذي ألفه عام ١٧٩٠م[٣].

ولأسرة آل كاشف الغطاء دور بارز في الحياة الدينية والأدبية والثقافية والأجتماعية والسياسية في مدينة النجف الأشرف خاصة وفي العراق والعالم الأسلامي عامة..

وقد برز منها الكثير من الأعلام والرجال ونهل من علومهم العلماء والفضلاء، ولهم آثار علمية يشهد لها القاصي والداني.

مولده:

ولد الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في النجف الأشرف عام ١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م. وتلقى العلوم الدينية في جامعة النجف الدينية وحلقات دروسها في جوامع النجف ، وعرف منذ صباه بالنبوغ والقدرة على التعلم والأكتساب، وقد فاق أقرانه، وأشار أليه أساتذته وشيوخه. وتعددت علومه في اللغة والفقه والأصول والحديث والفلسفة والعلوم والمعارف الأخرى.[٤]

حتى تصدر مكانا مرموقا بين اعلام الشيعة الامامية ومراجع الدين فيهم، وأخذ عنه الكثير من تلامذة الطبقة التي تليه. واتقن اللغة الفارسية إلى جانب اللغة العربية وعلومها، وله باع طويل في الشعر والأدب والخطابة.[٥]

وله مواقف وطنية وقومية وسياسية تنطلق من ثقافته الإسلامية ومن واجبه الديني، ومنطلقات عقيدته به. وقد رحل وإرتحل وجاب الأقطار كداعية من أجل ذلك.[٦]

وقد صنفه بعضهم ضمن رواد المدرسة الإصلاحية في العمل السياسي النهضوي، من أقران جمال الدين الأفغاني، لأنه أعطى خطوطا عريضة لذلك ولو أنه لم يصرح بها أو ينظر إليها.[٧]

وإلتحق بالرفيق الأعلى وهو في طريقه إلى إيران للعلاج في قرية (كرند) القريبة من الحدود العراقية الإيرانية، إثر مرض ألم به و لم يمهله طويلا.

وذلك صبيحة الإثنين من شهر ذي القعدة عام ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف وأودع في ثراها .[٨]

وقد ترك العديد من المؤلفات المخطوطة والمطبوعة في الفقه والإصول والفلسفة والأدب والتاريخ وغيرها. إحتوته مكتبته العامرة في النجف الأشرف.[٩]

أساليب الخطاب الديني ومعطياته:

لم يكن الإسلام موروثا حضاريا نشأ في حقبة تأريخية معينة ثم تلاشى أو أفل نجمه، ويحاول المسلمون بعث هذا الموروث من جديد .

ولم يكن ماضيا تليدا، او صفحات من تاريخ ناصع ،كلما تباطأت مسيرة الأمة الحضارية إرتفعت الصيحات للعودة إليه.

وإنما الإسلام عقيدة نابعة من صميم الفرد المسلم، وفطرة ذاتية تتوالد مع الأجيال المتعاقبة للمسلمين. يمثل إصالة ماضيها، و كونه نشأ في حقبة من تأريخها ،بل وصنع لها تأريخا مشرقا.

ومنه تنشأ ثقافة حاضرها كونه دستورا متكاملا لنظم الحياة يتماشى مع متطلبات الحاضر، وعليه تتوقف سعادة المستقبل الدائمة أو المؤقتة - هكذا في الأقل يعتقد المسلمون-.

فهو دين الحياة في شوطها الأخير.ولم تقع مسؤولية تطبيق نظمه على الفقهاء أو العلماء، أو النخب المتخصصة في علوم الدين وإنما تقع المسؤولية على الجميع.

والدعوة إلى المعاصرة والتجديد لا تعني الثورة على نظم وعادات وتقاليد بالية أو قديمة لا تتماشى ومتطلبات العصر، فذلك أمر تتطلبه الحضارات الناشئة من فلسفات وضعية، تتطلب إعادة النظر بنظمها أو قوانينها لحاجة الأجيال المتعاقبة إلى ذلك.

فالإسلام ثقافة وحضارة ناشئة من نصوص غير مختصة بعصر دون آخر، ولا محدودة بمكان دون سواه، وتمثل هذه النصوص أسس عقبدته، بل وتمثل الثورة عليها أو تغييرها مروقا عن الدين.

وهذه النصوص منها ما هو ثابت لا يمكن النظر إليه من زوايا متعددة أو مختلفة وتشترك فيه مع الرسالات السماوية الأخرى. وقديم كقدم الإنسان على الأرض، مثل أصول العقيدة في التوحيد والنبوة والمعاد في يوم القيامة. وإن تباينت الآراء حول مصاديق الجزئيات أو الصغريات التي تندرج تحت هذه الأصول.

ومن ثوابت الشريعة الإسلامبة الفروع كالواجبات أو المحرمات.- فحلال محمد (ﷺ) حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة-.

ومنها ماهو متغير يتساير مع متطلبات العصر زمانيا ومكانيا. وفي هذا الجزء من التشريعات يكمن الإجتهاد، وعلى هذا مدار عمل الفقهاء، ومجمل عملهم يتحدد وفق منهجين هما:

الأول:

الدفاع عن العقبدة الإسلامية برد الشبهات والزيف والتحريف والوقوف أمام التيارات - الخارجية والداخلية - المنحرفة، والبدع والضلالات ومقاومة الأفكار الهدامة.

الثاني:

التجدبد وحل الإشكاليات المستحدثة التي يحدثها التطور الحضاري المادي، وتحديد موقف الإسلام من الفلسفات والأفكار والرؤى، ورسم المسارات التي تجعل

النظريات الإسلامية تتساير مع متطلبات المراحل التاريخية.

وهذا ما ندعوه بالتجديد أو المعاصرة، وينشأ من إستنطاق النصوص والنظر إليها من زوايا مختلفة. وبالطبع فإن هذا الأمر سينشيء إختلافا بين أصحاب ملكة الإجتهاد أو العاملين في الفكر والبحث العلمي بين الرفض أو القبول أو بين الرؤى والأ فكار لأن ((الإجتهاد يعني بكل وضوح إستيعاب المتغيرات ومعالجتها على أساس الإصالة، أو صب الإصالة في أشكال متجددة باستمرار)).[١٠]

ولم يكن هذا الإختلاف سلبيا في أكثر جوانبه، إذا ضمنا سلامة النوايا والأهداف وإستبعدنا النوازع والأهواء.. بل أن هذا الإختلاف هو نماء للفكر وتشجيعا للبحث العلمي الجاد.

ولم يكن أمر التجديد والمعاصرة فرطا أو دون ضوابط تحكمه، بل يجب أن يتبع الدليل العلمي الناشيء من العقل، أو القواعد العلمية.

ومن هنا نشأت علوم الحديث وإصول الفقه وقواعد اللغة والبلاغة والفلسفة وغبرها من العلوم المساعدة للإستنباط .

وما دام الأمر تبعا للدليل العلمي، فعند ذلك يختص الأمر بعلماء الدين وفقهائه والعاملين بالبحث العلمي، كل حسب طاقته. ولكن العمل بهذا الأمر- التجديد والمعاصرة - يعتمد التطبيق وتحويل نظرياته إلى فعل. وهذا الأمر يتطلب إستجابة الأمة، ومن هنا ينشأ الخطاب الديني، وما دامت مدارك الأمة وثقافاتها تختلف من عصر لآخر، ومن شعب إلى غيره، ومن طبقة لأخرى. فهذا يتطلب تعدد لغة الخطاب الديني وأساليبه تبعا للمخاطبين به .

ويعتمد تطبيق النظريات الإسلامية على طبيعة ذلك الخطاب، فللنخب خطابها، وللفن خطاب يختلف بطبيعته عن خطاب العلم والأدب، وللمخالفين خطاب يتباين مع خطاب الموافقين، وللساسة خطاب خاص بهم أيضا .

وكما تختلف لغة الخطاب بين هؤلاء، فإن أساليب الخطاب هي الأخرى تتيع مدارك وإنتماءات المخاطبين، فمرة بالقول وأخرى بالعمل ،وثالثة بإنشاء المدارس والجامعات والمنتديات، أو بالتأليف والنشر والكتابة، أو الرسائل والدوريات. ويندرج تحت كل واحدة من هذه السبل عشرات الوسائل والأساليب.

وكل هذا يتطلب وضع منهجية للخطاب تعتمد التجديد لأن ((عمليات الإحياء والإصلاح والتجديد والتأسيس والتنظير والتأصيل والأسلمة، لها مصاديقها ومجالات إطلاقها وتطبيقها، كما أن لكل منها مساحاتها الفكرية والواقعية الخاصة، ولا يمكن تعميمها جميعا على كل مساحات الفكر والواقع ،لأن حقائقها نسبية، ولكن يبقى أن جميع النتاجات التي تفرزها هذه العمليات، والتي تشكل بنية الفكر الإسلامي وفقا لإستدعاءات المستقبل، لابد من صياعتها صياغة موحدة، ليكون الفكر المنتج عبارة عن منظومة فكرية واحدة مترابطة في مضامينها ومتناسقة في شكلها))[١١].

بل وإذا أريد منها الغاية القصوى للدين المتمثلة بحركة الإصلاح الدائبة والمستمرة على الأرض، توجب على جميع الأطراف المعنية والإنتماءات، الإتفاق على منهجية محددة في أطر وإيديولوجيات ثابتة أو متقاربة - قي الأقل- في توجيه لغة الخطاب نحو تلك الغاية. مع ترك مساحة للرأي الآخر أن يشغلها، كي تنمو من خلال هذا الإختلاف، حركة دائبة للفكر تتفرع عليها الآثار وتتنوع الرؤى على أن لاتصل إلى حالة التناقض والتضاد، أو النزاع والتخاصم - فهذا الأمر يكون في الخطاب الديني أكثر رفضا من غيره- لأن هناك مجالات إلتقاء بين كل الإختلافات، منشأها كون كل هؤلاء المختلفين هم عقلاء، ويهدفون إلى غاية واحدة، وبهذا يمكن إستغلال مجالات الإلتقاء هذه أفضل من مجالات الإفتراق. وهذا يتبع لغة الخطاب، ولعل أهمها الخطاب الديني لكثرة الإختلاف فيه، ولخطورته الأكثر من غيره، كونه نابع من صميم الإنسان، ويحركه أكثر من أي خطاب آخر. وهذا ما لمسته وتلمسه الإنسانية على مدى عصور تاريخها وبكل الأديان، حتى غير السماوية منها.

ولغة الخطاب الديني هذه لا تدعو إلى نبذ الموروث - كما يحلو للبعض أن يتصورها- وإنما هي لبعث ذلك الموروث مع المستحدث ليخلق لنا منظومة فكرية عصرية تتماشى ومتطلبات التطور المادي للحياة، مع ترك الباب مفتوحا للمتغيرات والإشكاليات المستقبلية.

وقد أدرك الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ذلك فتعددت وسائل الخطاب الديني عنده. لأن العصر الذي عاشه يتطلب وحدة المسلمين على إختلاف مذاهبهم واقطارهم . ولما كانت تحيط بهم من أخطار مادية ملموسة واضحة المعالم ومعلنة من قبل أعدائهم والطامعين. وأخرى معنوية فكرية ترنو إلى مسح هويتهم وإستلاب عقيدتهم، يصحب كل ذلك مظاهر لحضارة مادية وتكنلوجية تلقي بجرانها بين ظهرانيهم تبهرالأبصار، وتدعو إلحاجة إلى الإنتفاع بها، وهذا كله يتطلب تعدد الخطاب الديني وتنوع أساليبه ووسائله، وهذا ما لمسناه عند الشيخ آل كاشف العطاء.

محمد الحسين آل كاشف الغطاء والخطاب الديني:

تعاقبت حقب التاريخ على الفكر الإسلامي منذ عصر النشأة الأولى، وإنتقاله من مرحلة الرواية الشفهية إلى مرحلة التدوين، وبإتجاهاته كافة.

فالحديث النبوي الشريف وعلومه وما تفرع عليه من علوم، الجرح والتعديل، والدراية أو الرواية، وعلم الرجال، إلى التاريخ وتعاقب عصور تطور التأليف فيه من المشافهة إلى علمية التاريخ .

وفي التفسير وما رافقه من علوم القرآن وما تفرع عليه من علوم اللغة والبلاغة وما رافقهما. وعلم الكلام والفلسفة وما إلى ذلك.

كل ذلك كان بلغة متقاربة تكاد تكون متفقة على إسلوب المحاضرات ووسيلة التأليف والتدوين، وعلى خطاب العقل لإرساء القواعد النظرية للعقيدة الإسلامية .بعيدا عن التطبيق المباشر. فيما إذا إستثنينا علم الفقه لإرتباطه المباشر بالعبادات اليومية وبعض المعاملات كالأحوال الشخصية، والذي دعا إلى تحويل هذه النظريات والفتاوى إلى التطبيق المباشر. ولكنه ترك جانب كبير من هذا العلم، فقد أهملت مقاصد الشريعة في العبادات والمعاملات، وما تؤول إليه تلك المقاصد .وقد أبعدوها عن موضوع علم الفقه. فقد كتبت آلاف المدونات في الفقه وأبوابه وتفرعاتها وفرضياته، وتشعبات الخلاف والمقارنة بين الآراء وإستدلالات كل منها.

ولكن الجانب الآخر- مقاصد الشريعة - مقابل هذه المدونات يكاد يكون مهملا عدا بعض المحاولات، هنا أو هناك.

وهذا من إجترار الأفكار وتكرار الآراء، أو التحجر على بعضها من جانب آخر.

إلى ان جاءت (مجلة الأحكام العدلية) تمثل خطابا دينيا جديدا فتح آفاق التطبيق للنظريات الإسلامية في القضاء. فاعتبر عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م تحولا جديدا، بعد أن وصل الفكر الفقهي - في الأقل عند الجمهور - إلى مرحلة الحواشي والتعليقات.

ولو أن (مجلة الأحكام العدلية) إنتابها بعض النقص وأخذت عليها بعض الملاحظات فيما بعد مثل:[١٢]

١. الترتيب المنهجي المرتب للقواعد المتقاربة والمتداخلة.
٢. إحتوائها على بعض القواعد الإصولية. وخلطها مع القواعد الفقهية، كقاعدة ((المطلق يجري على إطلاقه)) أو قاعدة ((الأصل في الكلام الحقيقة)) أو قاعدة ((لاعبرة للدلالة في مقابل التصريح)).
٣. عدم إحتوائها على الأحوال الشخصية، وأحكام الإرث والوصية .
٤. ولكن هذا الأمر ليس غريبا، فلكل جديد بداية تنتابها ثغرات وفراغ يملؤه المحققون والباحثون من بعده، ولا يصل العلم إلى درجة الكمال ما دام جهدا بشريا .

ولكنها بمجملها تطور جديد في لغة الخطاب الديني حّول النظريات إلى مواد قانونية قابلة للتطبيق. ويا ليت هذا الأمر بالتطور، لتتحول موارد القضاء، والفكر الإقتصادي والسياسي والإداري والإجتماعي، إلى مواد وبنود قانونية لكل منها، تختلف عن لغة الفقه والرسائل العملية.

وقد حوّل الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (رحمه الله) في (تحرير المجلة) لغة الفقهاء في قواعدهم الفقهية إلى مواد وبنود. وأضاف على قواعد مجلة الأحكام العدلية ثلاث وعشرين قاعدة من مبتكراته.[١٣]

ولو أن بعض هذه ا لقواعد تحتاج إلى مناقشة، ولكنها في المجمل خطاب جديد في الفقه الإمامي. أضف إلى ذلك أنه أضاف إليها موضوع (الأحكام الشخصية) التي كانت قد أهملته (مجلة الأحكام العدلية).[١٤]

ولكي يكون الخطاب الديني من الشيخ آل كاشف الغطاء خطابا عاما وشاملا وموضوعيا متجردا بعيد عن الإنتماءات والتفرعات التي إختلف فيها فقهاء المذاهب الإسلامية، فإننا نراه قد أهمل في إضافاته للأحوال الشخصية (كتاب الإرث)، وذلك لإعتماد أنصاب الوارثين على القرآن الكريم، وإتفاق المذاهب الإسلامية على أكثر تفرعاته أولا. ثم ليعود كل أهل مذهب إلى فقه مذهبه في المسائل الخلافية التي تقع عندهم، كالعول والتعصيب وما إلى ذلك.

((ولم يسبق في تاريخ التقنين الحديث للتشريع الإسلامي، أن سجل هذه المبادرة أحد من علماء المسلمين بمختلف مذاهبهم، بل ولم ينته إليه أحد منهم))[١٥].

ويا ليت هذا أيضا أخذ محمل الجد والمتابعة لتتحول (تحرير المجلة) إلى قواعد وقوانين ضمن مواد ولغة قانونية عصرية توضع في قوانين الدول الإسلامية أو القانون العراقي - في الأقل -. ولكنه بمجمله يمثل خطابا دينيا جديدا ((وإن كان الهدف من تأليف هذا الكتاب - تحرير المجلة - إستظهار فقه أهل البيت (عليهم السلام) نسبة لفقه المدارس الإسلامية الآخرى، ولكنه يمثل نقلة نوعية في الفقه المقارن أو التطبيقي المنسجم مع وقائع الأحداث في العصر الحديث وما يحتاجه الإنسان على مستوى الفرد والمجتمع والدولة في الفقه الإجتماعي والسياسي المعاصر))[١٦].

ولذلك فإن الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء قد سد بعض الفراغ التشريعي القانوني، ووضع لفقهاء القانون والقضاة، نصوصا شرعية مقننة، تقارب في محتواها المواد القانونية ولغة القانون، وتتماشى - بعض الشيء- مع لغة العصر. ويستطيع القضاة أن يستوفون الغرض الذي توخاه صاحب الشريعة العظيم. ولكن هذا - مع الأسف - لم يحدث وأغلق الباب على هذا الجهد.

وقد برع الشيخ آل كاشف الغطاء (رحمه الله) في خطابه الادبي منطلقا من وظيفته الدينية. فحدث الشعراء والادباء بالشعر فاوعى واجاب بالنثر فاحسن. ولكي يشارك اهل الصنعة بابدع ما يحسنون ويخاطبهم من سنخ ماينظمون. فقد أجاب في رد بعض العلماء ممن احتلف معهم في الراي بالشعر وعمره انذا ك [٢٤عاما] أي في عام ١٣١٧هـ. وقد ابتدأ قصيدته بمقدمة نثرية قال في بعضها ((وردت إلينا في هذه الأيام قصيدة من بعض جماعة دار السلام، ولكنها يتيمة وإن كانت في سوق الشعراء مالها قيمة، يسأل فيها عن أمر الحجة المنتظر والإمام الثاني عشر.وتصدى شعراء العصر للجواب عنها ولكنهم لم يبلغوا حقبقته وإن أحادوا، وما أصابوا الغرض وإن أحسنوا بما جاءوا به وأفادوا. فقلت في نفسي إعط القوس باريها فلا يخطي مراسيها))[١٧].

فاتخذ الأدب يراعا في خطابه، والشعر دفاعا عما يعتقد. ولو أن الأمر لم يكن جديدا على التراث العلمي العربي والإسلامي، ولكنه خطاب لكل قوم بلغتهم، ليكون أقرب للقبول عندهم من لغة الفقهاء. فكان بحق أديبا بين الأدباء، وشاعرا مع الشعراء، وفقيها عندما يخاطب الفقهاء، ولا يحسن هذا إلا القليل من المبدعين.

ولعل كتابه (العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية) يعبق بذلك الخطاب مع صنوف الناس وتعدد العلوم والآداب والفنون .

ولطالما إستعمل الشعر لراحة الروح من عناء النفس، وجعل منه محطات للترويح ولكنه لم يخرجه من هيبته، ولم ينقص من وقاره، فمهمته شاغله الوحيد وعمامته ذات الذوائب المتدلية تزيده ورعا، ولعل من بديع نظمه قبل رحيله بعشر ساعات جمعت روحه الطاهرة مع نفسه الأبية وفي جسده المتعب الوقور. وهو يصف قرية (كرند) الإيرانية. وهو جالس على عين ماء فواره فيها تبعث في النفس راحة بعد العناء، وسكون بعد وعثاء السفر فيقول:

يا بديع الجمال في كل قلب نور ذاك الجمال أودع حمره فسكرنا
قد سقتنا تلك الشمائل كأسا ولم نذق قط خمره
إن هذا الوجود بحر ولكن أين من في الوجود يسبر غوره
ولهذي الأكوان لب ولكن ما عرفنا حتى لحاه وقشره
ولهذي الحياة معنى ولكن علنا بالممات نعرف سره[١٨]

وقد رحل باحثا عن سر هذا الوجود، بعد أن أكمل عدة المسير والسفر إلى الخلود.

وإن إستجابته للدعوات المقدمة له من هنا وهناك، وحضوره الندوات والمحافل والمؤتمرات في العالم الإسلامي بكل طوائفه ومللة. لهي لغة خطاب أخرى لمسلمي عصره. وما أحوج الإسلام والمسلمين له في كل وقت. فعلى سبيل المثال عندما سألوه عن سفره إلى الباكستان أجاب: ((إنه قد وردتنا عدة كتب مطبوعة في عدة مرات في أزمنة مختلفة تتضمن تلك الكتب دعوة إخواننا الباكستانيين من أعلام المسلمين وعلمائهم في عاصمتهم يدعوننا للحضور إلى مؤتمر إسلامي إعتزموا على عقده بإجتماع رجال الإسلام للمداولة في شؤون المسلمين والنظر فيما أحاق بهم من البلاء والإستعداد لدفع عواصف تلك الأعاصير السياسية السوداء عنهم وعن الإسلام))[١٩].

بينما نراه يرفض الإستجابة لمؤتمر يرى أنه لا فائدة ترتجى منه للإسلام أو المسلمين، ويرد على مقرراته بكتاب أطلق عليه (المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون).

ولعل الإسلوب الذي إتخذه في رحلاته وسفراته بين أرجاء العالم الإسلامي ليحدث المخالفين لمذهبه أو دينه وجها آخر من أوجه الخطاب الديني الذي إستعمله الشيخ آل كاشف الغطاء. فمن حجه إلى مكة عام ١٣٢٩هـ -١٩١١م رحل إلى دمشق وبيروت والقاهرة ودّرس الفقه والبلاغة في جامع الأزهر. وطاف على نوادي التبشير الديني المسيحي آنذاك، التي كانت تعقد كل ليلة في كنائسهم هناك[٢٠].

ونشر العديد من المقالات والقصائد في أمهات الصحف اللبنانية والسورية بتوقيع (نجفي) أو (سيار) في عام ١٣٣٢هـ قبل نشوب الحرب العالمية الأولى [٢١].

وكذلك في سفرته إلى القدس عام ١٣٥٠هـ لحضور المؤتمر الإسلامي هناك وخطبته التاريخية الشهيرة فيه، بعد أن أمّ جميع المؤتمريين الحاضرين من أقطار العالم الإسلامي في القدس ((وكانت لتلك الإمامة رؤى في الشرق. فقد أعتبرت بذرة للتقارب والألفة وعلقت عليها الآمال))[٢٢].

وهكذا جميع رحلاته وسفراته، فكان فعله خطابا دينيا جديدا لم يقم به علماء الإمامية إلا ما ندر منهم، أضف إلى ذلك دروسه ومحاضراته وخطبه التي يلقيها هناك.

وما أحوجنا اليوم إلى ذلك الخطاب من طبقة لهم الشأو الأعظم في المحافل الإجتماعية. فمن خطبة له في إحتفالية بالمولد النبوي الشريف يقول فيها: ((الإحتفال الصحيح الذي ينتهج به النبي(ﷺ) ويسره هو الأخذ بتعاليمه وإتباع سنته والعمل بقرآنه، والإحتفال الصحيح أن يكون المسلم مسلما حقيقة ومعنى لا صورة ولفظا، وقد جعل (سلام الله عليه) للمسلم علامات كثيرة أقلها وأولها أن يهتم بأمور المسلمين حيث قال: من لم يهتم بأمور المسلمين فليس من الإسلام بشيء، على ضوء هذه القاعدة يجب أن نمتحن أنفسنا ونضع في الميزان إسلامنا))[٢٣].

وفي أخرى يقول: ((أيها البشر عليكم بالقرآن ففيه سلامتكم بل وسعادتكم ولو عمل الناس به وأخذت الدول بتعاليمه لإستراحت البشرية من هذا التكالب، وعرف كلّ حدّه وحقّه، القرآن ،القرآن، إجعلوه الجامعة العربية والوحدة الإسلامية، وتجنبوا الخلافات المذهبية، والخصومات الطائفية، وليعمل كل على مذهبه في فروعه بغير جدال ولا خصومة، وأقصى الآمال والأماني أن تتوحد الحكومة والأمة فتكون الحكومة كأب بار بالرعية، والرعية كأبناء في معاونة الحكومة كي يسعد الجميع))[٢٤].

وكثر هذا النوع من الخطاب الديني عند الشيخ كاشف الغطاء.

وهذ الدعوة العامة لوحدة البشرية والإنسانية بعيدة عن الإنتماءات والتعصب وموارد الإختلاف، فإنه يضع الموضوعية والتجرد ميزانا لهذا كله ويدعو بقوله: ((وأقصى ما أرجوه من المطالعين الأفاضل والشباب المهذب أن يتجردوا من بعض

العواطف لنا أم علينا حتى ينظروا إلى الأشياء كما هي، ويعطوها حقها بمعيار العدل والإنصاف، من دون إسراف ولا إجحاف))[٢٥].

ودعا إلى الوسطية والإعتدال وأنكر التطرف في كل شيء، في فكره، وفي عمله، والنقد البنّاء المتجرد عنده سبيل الوصول إلى الحقيقة. ولم تأخذه في قول الحقيقة لومة لائم. فالدين لله وحده، ولا يكون الإنتماء فيه إلا لله. وما عدا ذلك فباطل. فالإجتهاد عنده ((باب رحمة على العباد، ومازال باب الاجتهاد مفتوحا عند الامامية من عهد صاحب الرسالة الى اليوم، ولكن هذه القضية بيننا وبين اخواننا المسلمين من بقية المذاهب ،وقد تطورت بين تفريط وافراط.

فالاماميه فتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه حتى ادى ذلك الى الفوضى المضّرة، وصار يدّعيه حتى من لا يصح أن يطلق عليه اسم المتفقه فضلا عن الفقيه ،

وبقية المسلمين قد سدوا باب الاجتهاد بتاتا، واقتصروا على المذاهب الاربعة. وقد ضاع الا عتدال والوسط في هذه الناحية، كما ضاع في غيرها، ولا حول ولاقوة إلاباالله))[٢٦].

وخطابه هذا لم يكن موجها إلى العوام من الناس، بل كان موجها إلى الخواص والفقهاء والمجتهدين ،ودعوة إلى المدارس والحوزات الدينية لوضع قوانين وضوابط تتحكم في الإجتهاد ودعواه. ورفضه لمقولة النظام في اللانظام .

وهذا مشروع حضاري دعا إليه الكثير من الفقهاء والمجتهدين من مدرسة الإمامية وغيرهم. ولا يزال يمثل مصدر جدال بين الأوساط العلمية الدينية المتخصصة. وهو خطاب موجه اليوم إلى المعنيين أكثر من أي وقت مضى.

الخطاب السياسي عند الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء:

ولم يكن الخطاب السياسي عند الشيخ آل كاشف بعيدا عن وظيفته الدينية، أو خطابه الديني. فهو فقيه يعرف ما يلقى على عاتقه من مسؤوليات جسام. كونه قد عاش في عصر الصراعات السياسية. وعاصر الحربين العالميتين الأولى عام ١٩١٤م والثانية عام ١٩٤٤م وما بينهما. ووعى جيدا أهداف الصراعات الدائرة، بأسبابها ونتائجها، ففي إحدى خطبه قال: ((الدفاع المشترك، المساعدات العسكرية، المساعدات التقنية، الحلف العسكري، كلها خداع وصراع، وإختلاسات وأطماع، خداع مغلف، وطمع مزيف ،ولو أن أمريكا تريد المساعدات الحقيقية، والمعونة الجدية للدول الضعيفة المتأخرة لظهر ذلك حتى الآن ... تريد تأخذ منا كل شيء، ولا تعطينا أي شيء))[٢٧].

وهذا إنموذج واحد من الخطاب السياسي للشيخ كاشف الغطاء ليوضح للأمة موقف الدين وعلمائه مما يدور في السياسة وما يحاك بين دهاليزها، وخلف

إجتماعاتها المغلقة. ويدعو الدول الإسلامية إلى التعاضد والوحدة والتكاتف والإعتماد على ذاتها، وجميع الإمكانات متاحة لها، بشرية كانت أم مادية.

ثم يرى أن العلاج الوحيد لتقدم الدول الإسلامية وتطورها الحضاري يكمن في الإعتماد على الأخلاق الإسلامية والملكات الفاضلة. ويرى عزة المسلمين وشرفهم وكرامتهم تكمن في الفضيلة التي ينادي بها الإسلام.(٢٨)

وفي رده دعوة المؤتمرين في بحمدون بلبنان لم يأل جهدا من توجيه خطابه فيما يحدث هناك، وما يدور في خلدهم فيقول: ((هذه الخمور التي تباع جهارا في أسواق المسلمين وفي حوانيت المسلمين هي محاربة لله ولرسوله وللإسلام، تقول لك بلسان حالها من وراء زجاجتها: على رغم أنفك أيها المسلم أتيت من أوربا لتشتريني، وتدفع المال ليصنع به السلاح لإستعبادك وإستعمارك))(٢٩).

بل ويضع بعضهم للشيخ كاشف الغطاء منهجا حركيا في العمل السياسي يقسمه على ثلاث مراحل هي:(٣٠)

الأولى: الدعوة والإرشاد وإستعمال وسائل الإعلام والحلول السلمية للحصول على الحقوق المهدورة .

الثانية: المقاومة السلمية والسلبية ،كالمظاهرات والإضرابات والمقاطعة الإقتصادية .

الثالثة: إذا لم تنفع المرحلتان الأولى والثانية - فالدعوة إلى الجهاد والحرب والثورة.

وهذا خطاب حضاري وعصري متمدن نابع من تعاليم الإسلام وأخلاقياته .

فبعد أن أرشد وأوعى بخطبه، نادى بها أيضا لمقاطعة البضائع الأجنبية وإتباع سياسة الإكتفاء الذاتي وإعتبر إستهلاك تلك البضائع إمتصاصا لدماء الحياة. ونادى بأن {الإتحاد والإقتصاد} أصلين ثابتين، وقال: ((إحفظوا هذين الأصلين وخلاكم ذم. دبروا معاشكم، فإن التدبير نصف المعيشة، وما إفتقر من دبر))(٣١).

وأكد على الوحدة والإتفاق بخطاب يبعث على الإثارة والإستفزاز فقال: ((منح الله - سبحانه - البشر عقولا، بها إمتازت عن البهائم، ليميزوا بها الحسن من القبيح، والخير من الشر، والنافع من الضار، فيا ترى هل بقي شك أو شبهة لأحد في ضرورة الإتحاد والإتفاق؟ وإن العدو ما كادهم في بلادهم إلا بما يدسهم فيما بينهم من سموم النفاق. حتى إستفحلت بليته، وأمكنت فريسته، على أوهام فارغة، وأمور فاشلة، لاحقيقة لها، ولا وجود ولا أثر ولا عين))(٣٢).

وخلاصة القول فقد كان الشيخ كاشف الغطاء يجل لغة الحوار، ويقبل النقاش العلمي الحر، ولا يفرض رأيه على الآخرين، وإنما يناقش الدليل بالدليل، والحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، يدعم ويرفض، ينقد ويقبل، يدحض ويعضد، وهذه هي لغة الحوار العلمي البنّاء، دون التعنت لرأي، والإصرار عليه أو فرضه على الآخرين، وبعيدا عن التشنجات والمشاجرة.فعنده ((الويل لأمة يكثر فيها أولئك الذين يلقون الكلم على عواهنه بلا دليل، ويسلكون في محاوراتهم طريق التكفير والتشهير،

فالحوار والمناقشة هو الأسلوب الحكيم الذي إستعمله القرآن الكريم للإستدلال به على وحدانية الله تعالى وعلى تصديق رسله الكرام))[٣٣].ويتقبل النقد بروح علمية، بل ويبحث عنه عند أهل العلم والمعرفة ليقف على حقبقة ما يفول، ومظان ما يكتب، فيبعث بأرائه، ويخاطب أقرانه لينتظر الرد والنقد .ويجيب من ينقد آرائه ويخاطبه بأكثر الأساليب تواضعا، وأرقها إعتذارا. فمن قوله في ذلك: ((لا وأبيك، لا وربك، وإنما أرغب في أن أفتح باب المراسلة، وأنهج سبيل المبادلة، فنتبادل الأفكار، ونتراجع في الحوار ،ونقدح زناد المناظرة، عسى أن يتطاير شرر نستهدي به إلى لامعة الحقيقة، وجامعة بين الصواب، هي - وحياتك العزيزة عليّ- أقصى ما أبتغي وأروم من كل حياتي، وعساني أن أنتفع بذلك أكثر من غيري))[٣٤].

فلا يتعنت لرأيه، ويترك الباب مفتوحا لآراء غيره فيقول: ((فإن أصبت فمن حيث لا أحتسب، وإن أخطأت فمن قران أمرين - لاينتجان سوى الخطأ، ولا يعقبان سوى الفشل، إلا أن يعصم الله - العجلة، وغريزة الجهل التي هي أقدم غرائزنا وأسبق صفاتنا))[٣٥].

وقلما تجد تلك الروح العلمية الموضوعية المتجردة والمتواضعة، المسامحة عند نظرائه وأقرانه، وذلك الحطاب الهاديء المتشعب الوسائل، والقول الصادق مع الآخرين، وإن كان بعيد الصلة بهم. إعترافا منه وإقرار بأن ((فوق كل ذي علم عليم)).

هوامش البحث

(١) ينظر/محمد السماوي: الطليعة في شعراء الشيعة: ٢٠٤/٢
كذلك/ آغا بزرك الطهراني: طبقات أعلام الشيعة: ١/ ٦١٢ (القسم الثاني من الجزء الأول من نقباء البشر في القرن الرابع عشر)
(٢) ينظر/محمد الحسين كاشف الغطاء: العبقات العنبرية: ٢١
كذلك / محمد الحسين كاشف الغطاء: جنةالمأوى: ١٦
(٣) ينظر/مقدمة كتاب (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء)
(٤) ينظر/ آغا بزرك الطهراني: طبقات أعلام الشيعة: ٦١٢/١
كذلك/ عمر رضا كحاله: معجم المؤلفين: ٢٥٠/٩
كذلك / محمد هادي الأميني: معجم رجال الفكر والأدب في النجف: ٣٦٥
(٥) وقد كتب السيد عمار عبد الأمير السلامي رسالة للماجستير بعنوان (شعر الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء)
(٦) ينظر / المصدرنفسه: ٢٣ وما بعدها
(٧) ينظر / ظاهر جبار عبيد: الإمام كاشف الغطاء ووعي الواقع الإسلامي: ١٣٩
(٨) ينظر / محمدالحسين آل كاشف الغطاء: جنة المأوى: ٦٤، ٦٥
(٩) ينظر / محمد الحسين آل كاشف الغطاء: تحرير المجلة: ٤٣/١ وما بعدها
(١٠) عبد الكريم آل نجف: مدخل إلى دراسة الدور الحضاري للمرجعية الدينية: ١١٧
(١١) علي المؤمن: مراجعة الفكر الإسلامي في ضوء متطلبات المستقبل: ١٠
(١٢) ظ /محمد الحسين آل كاشف الغطاء: تحـرير المجلـــة: ١/ ٣٠ وما بعدها
(١٣) ظ / المصدر نفســـه: ١ / ٤٠ وما بعدها

(١٤) تناول الجزء الخامس من تحرير المجلة الأحوال الشخصية
(١٥) المصدر نفسه: ١ / ٤٢ ،٤٣
(١٦) ظاهر جبارعبيد: الإمام كاشف الغطاء ووعي الواقع الإسلامي: ١٤٣
(١٧) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: جنة المأوى: ٢٠
(١٨) علي الخا قاني: شعـــراء الغـري: ٨ / ١٧١
(١٩) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: جنـــة المـأوى: ٢٢
(٢٠) أودع ذلك في كتابيه (المحاورة بين السفيرين) و (المراجعات الريحانية)
(٢١) ينظر / محمد الحسين آل كاشف الغطاء: جنة المأوى: ٤٧
(٢٢) محمد الحسين آلكاشف الغطاء: جنة المأوى: ٤٨
(٢٣) المصـــــدر نفسه: ٩٣، ٩٤
(٢٤) المصـــــدر نفســـــه: ١٣٣
(٢٥) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: تحـــرير المجلـــة: ١/ ١١٠
(٢٦) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: تحـــرير المجلـــة: ١١٤/١، ١١٥
(٢٧) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: في السياسة والحكمة: ٨٥، ٨٦
نقلا عن / ظاهر جبار عبيد: الإمام كاشف الغطاء ووعي الواقع الإسلامي، قراءة في النظرية الحركية: ١٣٧
(٢٨) ينظـــر / المصـــدر نفســـه: ٩٦ ومـــابعـــدها
(٢٩) محمد الحسين آلكاشف الغطاء: المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون: ٧٤
(٣٠) ينظـر / ظاهر جبار عبيد: الإمام كاشف الغطاء ووعي الواقع الإسلامي: ١٣٨
(٣١) من خطب الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء في قضية فلسطين الكبرى: ١٣٠
(الخطبة الثالثة في ١٦ / ذي القعدة / ١٣٥٢هـ)
(٣٢) المصـــــدر نفســـــه: ٩٥، ٩٦
(الخطبة الثانية في (جامع المنارتين في البصرة) في ١٠ / ذي القعدة / ١٣٥٢هـ)
(٣٣) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: المراجعات الريحانية: ١ /٧
(٣٤) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: المراجعات الريحانية ١ /١١٤، ١١٥
(٣٥) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: المراجعات الريحانية: ١ / ١١٦

قائمة المصادر والمراجع

(١) آغا بزرك الطهراني: طبقات أعلام الشيعة المطبعة العلمية: النجف الأشرف: ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧م
(٢) ظاهر جبار عبيد: الإمام كاشف الغطاء ووعي الواقع الإسلامي قراءة في النظرية الحركية بحث منشور في مجلة (رسالة الثقلين) /العدد/٥٠، السنة: الثالثة عشر، محرم ،ربيع الأول ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
(٣) عبد الكريم آل نجف: مدخل إلى دراسة الدور الحضاري للمرجعية بحث منشور في مجلة المنهاج: السنة الثانية: العدد الثامن / شتاء ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م
(٤) علي الخاقاني: شعراء الغري المطبعة الحيدرية: النحف الأشرف ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م منشورات: دار البيان
(٥) علي المؤمن: مراجعة الفكر الإسلامي في ضوء متطلبات المستقبل
(٦) عمار عبد الأمير السلامي: شعر الشيخ محمد حسين آل كاسف الغطاء رسالة ماجستير على الآلة الطابعة / كلية الآداب: جامعة الكوفة
(٧) عمر رضا كحاله: معجم المؤلفين مؤسسة الرسالة / بيروت ١٤١٤هـ
(٨) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: تحرير المجلة تحقيق: محمد الساعدي ط/١: مطبعة فجر الإسلام: طهران: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
(٩) جنة المـــــــأوى تعليق: محمد علي القاضي الطباطبائي منشورات: مكتبة آل كاشف الغطاء: النجف الأشرف: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م
(١٠) خطب الإمام كاشف الغطاء في قضية فلسطين الكبرى (بدون مطبعة ولاسنة طبع)
(١١) العبقـات العنبـــرية في الطبقات الجعفرية (تاريخ المرجعية في القرنين الثاني عشروالثالث عشر الهجريين) منشورات: مكتبة آل كاشف الغطاء: النجف الأشرف
(١٢) المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون المطبعة الحيدرية: النجف الأشرف: ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م

(١٣) المراجعات الريحانية تحقيق وتعليق: مجمد عبد الحكيم الصافي مؤسسة ذوي الفربى / إيران ١٤٢٧هـ
(١٤) محمد السماوي: الطليعة في شعراء الشيعة المطبعة الحيدرية: النجف الأشرف
(١٥) محمدهادي الأميني: معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام ط/١: مطبعة الآداب: النجف الأشرف: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م